الجامعة العربية لن تبقى إلا بعد اصلاح.. كل اعضائها

غسان سلامة

■ لسنوات قليلة خلت، كان الزائر الى مكتب جامعة الدول العربية هنا في باريس، يفاجأ بموظفيه وقد لبسوا معاطفهم، واضافوا اليها الاغطية وهم وراء مكاتبهم. اذ لم يكن عند المكتب من المال لشراء المازوت الضروري للتدفئة، ناهيك عن دفع الرواتب للموظفين، او عن القيام بالاعمال الاخرى المنوطة به.

هذا الفقر المدقع لم يكن له في الواقع مبرر حقيقي. فميزانية جامعة الدول العربية لم تكن تتجاوز الثلاثين مليون دولار، وهذا مبلغ متواضع لكل الامانة العامة، ناهيك عن مكاتبها في الخارج. وبوسع اي دولة عربية، حتى لو لم تكن نفطية، اقتطاع هذا المبلغ الزهيد لتمويل عمل الجامعة لو هي شاءت ذلك فعلاً.

لكن الدول العربية، في معظمها، محجمة عن دفع ما يترتب عليها.. او حتى رافضة التفكير بذلك اساسا حتى لو ان حصة بعض الدول من ميزانية الجامعة لا تزيد في السنة عن مليون او مليوني دولار، وهذا ما ينفقه ثري عربي واحد في ليلة سهر وسمر وميسر. فما بالك إن تحدثنا عن مبنى الجامعة في مقرها التونسي السابق، والذي ما ان يبنى فيه حائط حتى يتوقف العمل اشهرا وسنوات بانتظار دفعة جديدة.

هذه الجامعة المثيرة للشفقة من فرط عدم اكتراث الدول العربية بتعزيزها، هذه الجامعة الفقيرة، وفي بعض الاحيان، التعسة، عملت تونس بنشاط كثيف لابقائها عندها، وعملت مصر بجد وحماسة لاعادتها الى القاهرة خلال حرب الخليج الماضية. فعادت فعلا الى جوار النيل، وانتخب مصري لامانتها العامة. وبدت القاهرة لوهلة وكأنها سجلت نصرا مزدوجا مبينا. وهللت صحفها لعودة الجامعة اليها، وكأنها عودة مكوك فضائي من القمر. اما الجامعة فقد استمرت في روتينها، في هامشيتها، في هزالها، ان كان مقرها في ذاك المقر القبيح في شارع خيرالدين باشا التونسي، او في المبنى الايطالي الشكل بالقرب من ميدان التحرير القاهري.

هذا هو مازق الجامعة الفعلي: تنافس بين الحكومات للسيطرة عليها، وتلكؤ مماثل في تمويلها وتعزيزها. وكأن هم كل حكومة منع اي حكومة اخرى من استعمال الجامعة لمصلحتها وفور استيلائها عليها، تحولها الى نوع من متحف اضافي في عاصمتها. وتعتبر الحكومات الاخرى انها غير معنية بجامعة مقرها في عاصمة غيرها، وليس عندها.

لم تكن تونس طبعا، على الرغم من «استضافتها» للجامعة لعقد ونيف، قادرة فعلا على استغلالها في صلب دبلوماسيتها، لان تونس هامشية وضعيفة في التركيبة العربية. وتعويضا عن غياب مصر الحكومي كان الشاذلي القليبي يحاول جاهدا احاطة نفسه بعدد غير قليل من صناع الرأي المصريين، وكان يستفتيهم في غير واحد من الامور، ويوظفهم احيانا في الامانة العامة ويسترضي بعضهم الآخر بالتوكيلات المختلفة علهم يعودون الى بلدهم وقد «حيدوا» عن منحى الحكومة المصرية، خلال المرحلة التونسية من حياة الجامعة، وكان هذا المنحى قائما على فرضية ظريفة مفادها ان لا حياة للجامعة الا بجوار النيل.

ويا ليت كان هذا المنحى صحيحا. فها ان الجامعة قد عادت الى قاهرة المعز ولم يبدر عنها ما هو اهم واخطر واكثر تاثيرا عما كانت عليه الحال في تونس. لاريب في ان مصر اكثر ثقلا من تونس. وكان باستطاعة مصر ان تؤكد اهتمامها بالجامعة لو انها مثلا اصرت، بعد عودة الامانة العامة الى مصر، على انتخاب عربي غير مصري امينا عاما، لتثبت تأنفها عن استتباع الجامعة بمجرد وجودها في عاصمتها. ولكن الحكومة المصرية عادت الى سابق عهدها، وفوتت فرصة ممتازة للتعبير عن صدق اهتمامها.

والواقع ان هذا الاستتباع المصري للجامعة شكل جزءا اساسيا من تراثها. فعندما تكون الجامعة في مصر، يصعب على الدول العربية الاخرى ان تستخرج من الجامعة ما لا يرضي مصر. وان شاءت القيادة المصرية الا تكون الجامعة الا صدى ضعيفا للمواقف المصرية، فعلت ذلك بنجاح كما تشير لذلك سنوات عبدالخالق حسونة الطويلة على رأس امانتها، ولو ان محمود رياض حاول لاحقا تصحيحا متواضعا لهذا الميل.

ولكن مخاطر الاستتباع المصري لم تعد اليوم الا مسالة ثانوية من حياة هذه المؤسسة المنكودة الحظ. فالتناقض الاساسي الذي بنيت عليه الجامعة قد انفجر اليوم بوضوح. فهي جامعة تعمل كمنظمة دولية تضم دولا عديدة ذات سيادة وهي في الآن معا الموضع المؤسسي الذي كان يمكن للفكرة العربية ان تجد فيه موطنا لها. ولكن الشعوب العربية ما اكترثت فعلا لجامعة خلقتها الحكومات لخدمة الحكومات بمنطق الحكومات. ولا الحكومات العربية مهتمة فعلا بتطوير الجامعة لكي تصبح المكان الذي يتحقق فيه التضامن العربي، وتتضح فيه المصالح العربية العليا، وتنظر اليه الشعوب كحام لاوهامها واحلامها وامانيها. فاصبحت الجامعة بين شاقوفي حجر: الشعوب ترى فيها صنيعة الحكومات والعوبتها، والحكومات ترى فيها تأسيسا لتضامن لم تسع يوما الى تحقيقه فعلا. فلا احترمتها الحكومات ولا اهتمت بها الشعوب، واصبحت الجامعة مع مرور الزمن يتيمة من دعم الانظمة ومن عطف الناس معا.

وبينما جامعة العرب على هذا الهزال تكاثرت عليها التحديات من كل حدب وصوب. كان التحدي الاكبر هو منطق الدولة في مواجهة منطق الجامعة. اذ رأت مصر انها قادرة على تغليب مصلحتها على رفض العرب العارم آنذاك لزيارة السادات للقدس كما لاتفاقات كمب ديفيد. والواقعية تقضي، ١٥ عاما بعد زيارة القدس، على الاستنتاج بان منطق الدولة قد انتصر بوضوح على منطق الجامعة، وان كمب ديفيد حي يرزق بينما الجامعة في متحف المصوغات الاثرية. بل ان الجامعة نفسها عادت ادراجها الى القاهرة بينما لم ينتقص حرف واحد من اتفاقية السلام المصرية ــ «الاسرائيلية». وكان هذا الانتصار المصري ذروة لعدد من الحالات الاخرى حيث كان منطق الدولة هو الغالب، اكانت هذه الدولة مصر أم العراق أم سورية، لا فارق.

وكان التحدي الآخر تآكل الحالة السياسية العربية مع عجز واضح بل فاضح للجامعة في حل النزاعات. كان دور الجامعة ثانويا، بل هامشيا حتى التفاهة في حرب لبنان، وكان دورها غائبا عن حرب السودان، وكان دورها في الاقل مشبوها في حرب الخليج. ولم تفعل الجامعة شيئا لاغاثة اهل الصومال، وهي الدولة العضو التي هلل كثيرون لعضويتها. ولم تستطع الجامعة شيئا في الحروب الحدودية بين العرب، ولا في حروبهم الاهلية. فانتفى الحد الادنى الضروري لبقائها اذ اضافت العجز عن تسجيل التقدم دفاعا عن مصالح العرب ضد اعدائها للعجز في مجال منع الخلافات العربية من ان تتزايد عددا وتستفحل خطورة.

وجاء تحد ثالث لا يقل خطورة من عزوف الدول العربية عن الجامعة وبحثها الدؤوب عن مؤسسات اصغر كمجلس التعاون الخليجي، والاتحاد المغاربي ومجلس التعاون العربي (طيب الله ثراه)، وكأن الجامعة كانت

ثوبا فضفاضا لم تعد الدول راغبة في ارتدائه فارتدت الى اثواب اضيق تناسب قوامها الرشيق. ولا ينفع اهل الجامعة ان يذكرونا بان هذه المجالس البديلة لم تحقق نجاحا يذكر، وان مجلس التعاون العربي ولد ميتا، او ان الاتحاد المغاربي لم يولد بعد فعلا، او ان مجلس التعاون الخليجي يمر بمرحلة دقيقة قد تودي به. ففشل المؤسسات الاخرى الاصغر يزيد من وضوح فشل الجامعة بدلا من ان يعوض عنه. وفي اي حال متى كان فشل الآخرين بالضرورة نجاحا لغيرهم؟

وازدادت التحديات الخطيرة عددا عندما انكفأ التيار العربي من اوساط الناس وعلت الدعوات الاصولية الدينية فجاء من يقول ان الفكرة العربية هي من مخلفات الجاهلية وان الاسلام هو الجامع الوحيد. ولاقى هذا الكلام صدى واسعا بين الناس، ومنهم كثيرون انخرطوا فيه بحماسة. فضاعت الجامعة بسبب الوهن الذي ضرب الفكرة العربية من اساسها بمعاول الاصوليين حتى تبدى للناس ان الاصولية تسعى كغيرها من التيارات للسلطة السياسية اولا وان التوحد الاسلامي ليس هاجسها الاول وهو ربما ليس هاجسها على الاطلاق. وكانت الحرب العراقية ـ الايرانية دليلا ساطعا على هشاشة التضامن الاسلامي بينما تحولت المنظمات الاسلامية الى مثل الجامعة من الروتين والبيروقراطية والعجز. هنا ايضا لم ينفع الجامعة بتاتا ان غيرها فشل. فمتى كان فشل الآخرين بالضرورة نجاحا لغيرهم؟

ازدادت التحديات ولم تزدد مناعة الجامعة ازاءها. ويحسن اهل الجامعة بالقول انهم يعملون ما هم عليه قادرون. يجلسون في مكاتبهم، يقترحون، يفكرون، يتناقشون، يصغون، يهاتفون، يتأسفون، يعتبون.. وقلما يفعلون. لماذا لا يفعلون، لانهم مجرد مرآة لوضع العرب الراهن، وهو وضع المتأثر لا المؤثر، الراد الفعل لا الفاعل، المشوش الصورة. فالجامعة مرآة، ولسوء حظنا فيها فانها مرآة امينة، صادقة، تخبرنا باحوال العرب السيئة بمجرد النظر فيها. هذا لا يعني ان الامانة العامة اعدمت ناسا اوادم وفاهمين، ولنا بينهم غير صديق، لكن الامر يتعدى آدمية هذا وفهم ذاك. انه امر مؤسسة يتيمة من الحب والتقدير والفعالية والمال.

وربما ان الجامعة قد اصيبت بضربة قاتلة مرتين. مرة يوم كمب ديفيد حيث اجمع العرب على رفضها ثم قبلوا بها ووضعوا الجامعة في عاصمة الدولة التي وقعت عليها، ومرة اخرى يوم اجتاح الجيش العراقي الكويت. اذ تشير الوثائق والمعلومات مجتمعة ان الجامعة يومها رأت التخلي عن دورها حيث كان وجودها ضروريا، وتنازلت عن ريادتها يوم كان العرب ينتظرون منها القيادة، وتخاذلت امام مسؤولياتها للاميركان وغيرهم ليعيدوا للكويت وجودها وليعاقبوا العراق عقابا مريرا تجاوز لا مصلحة العراقيين فحسب بل مصلحة العرب جميعا وجامعتهم ايضا.

لهذا الهزال، رأى البعض ان هناك دواء: تعديل الميثاق بحيث تؤخذ القرارات بالاكثرية لا بالاجماع وهو كما نعلم عقيم. غير ان احوال التضامن العربي من السوء لدرجة نخاف معها ان يؤدي اتخاذ اي قرار بالاكثرية الى خروج الاقلية من الجامعة وعليها فالحكم بالاكثرية يتطلب قبولا عميقا نهائيا بمبادىء اللعبة الديموقراطية. فكيف يمكنكم تصور قبول الحكومات لهذه المبادىء على المستوى العربي وهي لا تقبل بها في بلدانها؟

اما الآن، فقد جاء وقت انهاء هذا المقال، وكاتبه يبحث جاهدا عن خاتمة تخلو من اليأس وتدخل للتحليل امرا ايجابيا وهو لا يجد، آملا ان يكون لدى قارئه من الافكار والاقتراحات البناءة التي ليست لديه. فالدعوة للواقعية لا تقنعه ولا تقنعك عزيزي القارىء، لان الدعوات للواقعية هي اجمالا غطاء مرن سطحي للدعوات الاستسلامية للقنوط. وهذا ليس هدفا رائعا بحد ذاته.

اما انعدام الافكار الايجابية فمرده ان لا إصلاح للجامعة إلا بإصلاح العرب، أي بإصلاح الاحوال الداخلية في مختلف البلدان العربية قبل التنطح لأصلاح ما هو مفروض ان يجمعهم. ولا يخطر بالبال لحظة ان هزال وعجز المنظمات الاقليمية في العالم، في افريقيا واميركا وآسيا، ناهيك عن اوروبا نفسها التي يلقى توحدها الآن الكثير من التعثر، ان هذا كله مبرر كاف للقبول باحوال الجامعة كما هي الآن.

لكن المنطق يقول ان الجامعة لن تصلح الا اذا صلحت احوال اعضائها، وهؤلاء الآن في حال غير مريحة من ضمور لقدراتهم المالية والعسكرية، وتخبط في عملية اصلاح مؤسساتهم السياسية ووهن في مواجهة التحديات العالمية المتسارعة من حولهم. ويقيني فعلا ان افضل اصلاح للجامعة مشروط اولا بتعديل جوهري في اوضاع الدول الاعضاء، الواحدة تلو الاخرى نحو مزيد من العقلانية ومزيد من الديموقراطية ومزيد من التنبه في عملية استغلال الثروات، ومزيد من الرشد في التعامل مع المؤثرات الخارجية. اما الانكباب على اصلاح الكل والاجزاء مبعثرة، خائفة، منقسمة، فهو كمثل عملية تجميلية لمنزل، حيطانه متداعية واثاثه قد علا عليه الغبار.

لا، اني لا اجد حلا لوهن الجامعة، الا باحياء اعضائها واحدا تلو الآخر، ولا اجد اصلاحا لها قبل اصلاح كل من مكوناتها. قد يتطلب الامر زمنا، وجهودا مضنية، ومعالجة حالات عشرين ونيف هي عدد الدول الاعضاء. ولكن يقيني ان هذه هي نقطة البداية، وان ما عداه نوع من التجميل السطحي، لجامعة لا يمكن ان تكون فعالة ان لم يَصُبْ مَنْ تجمعهم نحو العمل والاصلاح والتطور، كل في موقعه. فالجامعة مرآة للعرب، وهي ستبقى تعطي عن العرب صورة امينة صادقة. فلا ينفع استبدال المرآة ولا تجميلها ان لم تتغير صورة الناس الذين يتراؤون عليها. ■■